كتاب المؤتمر (١)

الندوة الدولية - ١ - ٢٠١٥

(اللغة العربية وآدابها: نظرة معاصرة)

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور محمد بشير (المسؤول)

نائب رئيس التحرير

الدكتور تاج الدين المناني

مساعد رئيس التحرير

السيد نوشاد

قسم اللغة العربية، جامعة كيرالا

ترفاندرم، كيرالا، الهند

Seminar Proceedings (1)

International Seminar - I - 2015
(Arabic Language and Literature: A Contemporary View)

CHIEF EDITOR
Dr. Mohammed Basheer K
Prof. & Head, Department of Arabic, University of Kerala

EDITORIAL BOARD
Dr. Thajudeen AS
Mr. Noushad

© All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the authors. The authors are responsible for the views expressed in their articles.

Book & cover design: Nujumudeen
Printed at Akshara Offset, Thiruvananthapuram
Published by Dr. Mohammed Basheer K

₹ 300.00

Contact for copies: 04712 308846 / campusarabic@gmail.com

مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر مقاربة نقدية

د. عماد عبد اللطيف
أستاذ مشارك البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة قطر

شغل حُلم تطوير البلاغة العربية مساحة رحبة من وعي أجيال متواصلة من الباحثين العرب؛ بداية من محاولات تحديث دروس البلاغة التعليمية في الأزهر الشريف على يد الإمام محمد عبده في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مرورًا بتحديث مسائل العلم ومنظوراته، كما تجلت في كتابات خليل إده اليسوعي وأحمد ضيف وأمين الخولي وسلامة موسى وغيرهم وفي النصف الأول من القرن العشرين، وصولاً إلى محاولات تحديث البلاغة بواسطة دمجها مع (أو إخفائها في طيات) النقد الأدبي وعلم الأسلوب وعلوم الاتصال والتأويليات في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، والتداولية والسيميوطيقا ولسانيات النص وتحليل الخطاب في تسعينياته والعقد الأول من قرننا الحالي. وهي علوم أتاحت للبلاغة أن ترفل في بريق الموضة الأكاديمية، الذي يجذب الأبصار ويغوي العقول.

كان طموح تحديث البلاغة، يستند إلى وصفة تقليدية للتحديث صاغها الشيخ أمين الخولي في عبارة: «أول التجديد قتل القديم فهمًا». غير أن معايشة القديم شيء، وإعاشته شيء آخر. فنظرة سريعة على الإسهامات المهمة في البلاغة العربية على مدار القرن الماضي، تبرهن أن وصفة «قتل القديم فهمًا» لا تُفلح – بمفردها- في إحيائه، ولا تُنجز – وحدها- تحديثه. وبوحي من عبارة أمين الخولي السابقة يمكن استكمال وصفة التحديث عبر فعل آخر هو «امتلاك الجديد نقدًا». إن إطلالة على اللحظة التاريخية التي نشأت فيها البلاغة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، تبرهن على الدور المؤثر الذي لعبه الاحتكاك الإيجابي بالآخر المختلِف حضاريًا (الهندي والفارسي واليوناني..)؛ سواء جاء هذا الاحتكاك في شكل الإفادة من المنجز البلاغي للآخر (مثل صحيفة بشر وكتابات أرسطو..)، أو في شكل الدفاع (المعرفي) عن بلاغة الذات في مقابل انتقادات الآخر؛ كما رأينا في دفاع أصحاب معاني القرآن وإعجازه عن بلاغة النص القرآني، ودفاع الجاحظ عن الممارسات الخطابية للعرب في مواجهة اتهامات الشعوبيين.

في الوقت الراهن، يكاد يقترن «الجديد» بما تقدمه البلاغة الغربية في وعي كثير من الدارسين. وغالبًا ما يتخذ البلاغيون العرب أحد موقفين متعارضين من هذا الجديد. الأول يغلب عليه استلاب المفتون، والثاني يغلب عليه نبذ الكاره. ونادرًا ما يُتبنى منظور نقدي في التعامل مع الجديد البلاغي؛ بما يتيح موقفًا متوازنًا منه. فقد اعتادت عين المفتون أن تكون عن كلِّ عيبٍ كليلةٍ، كما اعتادت عين الكاره أن تكون لكلِّ خيرٍ منكرة.

إضافة إلى ذلك، فإن مأزق تحديث البلاغة يتعمق حين نعترف بحقيقة أنَّ المعرفة البلاغية العربية لم تكن طوال الوقت مشغولة بالحياة العربية كما يجدر بها أن تكون. فكل معرفة لا تحرث في أرض الحياة تظلُّ معلَّقةً – كالمشنوقة- بين حبال التنظيرات. وقد عاشت البلاغة العربية، أيام مجدها، حياة شاب جسور يُصارع الواقع ويفاوضه، ويستجيب له، ويغيِّره. غير أن الحال انتهتْ بها عجوزًا محاصرةً داخل صومعة الشروح والحواشي والتعليقات، معزولةً عن فضائها الحيوي، حبيسة سجن ماضيها العتيق. وبعد أن كانت كينونة نابضة، تستمد حيويتها من سيرورة المجتمع وثراء تحولاته، انكمشت لتصبح حروفًا وكلمات مرتعشة داخل دفات كتبٍ مولعةٍ بالنقل، وقاعات درسٍ مُفعمة بالتلقين.

لقد بذل البلاغيون العرب على مدار العقود الماضية

جهودًا كبيرة لإنعاش البلاغة العجوز، ومنحِها قبلة حياةٍ، أو جرعةً من إكسير الشباب. وكان عمل البعض منهم مثيرًا للإعجاب بفضل تحلِّيه بسمتي العبقرية؛ أقصدُ البصيرة والإخلاص. غير أنَّ قطرات المطر المتقطع، نادرًا ما تُفلح في أن تصنع أنهرًا. وها نحن بعد أكثر من قرن ونصف على دعوة تحديث البلاغة لا نجد أمامنا إلا سلسلة متقطِّعة من الخلجان. وهو أمر يدعو للأمل بقدر ما قد يثير الأسى. إن نظرة من شاهق على خلجان البلاغة الراهنة، قد تتيح لنا تأملاً أعمق للتحديات التي تحول دون اكتمالها متدفقة في صورة أنهار. لكن قبل أن نقدم إحاطة وافية بهذه التحديات، سوف نحاول أن نقدم صورة دقيقة موجزة لتوجهات الدرس البلاغي الراهن في العالم العربي.

توجهات الدرس البلاغي الراهن: المركز والتخوم

لقد شهدت العقود الأربع الماضية تصاعد الاهتمام بالدراسات البلاغية في أنحاء العالم العربي؛ وهو ما يرجع إلى أسباب معرفية وأخرى مادية. من بين الأسباب المادية، تزايد الاهتمام بالتعليم الجامعي في العالم العربي خلال العقود الأخيرة، والتوسع في إنشاء جامعات، ومراكز بحوث، ومعاهد عليا، فيما يُشبه الطفرة التعليمية. وكانت العلوم الإنسانية عمومًا، وعلوم اللغة العربية وآدابها على نحو الخصوص جزءًا من هذه الطفرة، فزادت أقسام الدراسات العربية ومراكز بحوثها وجمعياتها العلمية وحلقاتها الدراسية وفرق البحوث فيها ومخابر الدراسات حولها. كما زاد عدد الطلاب الملتحقين بهذه الأقسام في المستوى الجامعي، ومستوى الدراسات العليا. ومن المحتمل أن يصل عدد المتخصصين في الدراسات العربية إلى عشرات الآلاف على اتساع العالم العربي. وهو ما يعني ازدهارًا كميًا للمعرفة، ينعكس بدرجة أو أخرى على تزايد معدل إنتاج البحث العلمي في علوم العربية، والبلاغة أحد هذه العلوم.

لكن العنصر الأكثر حسمًا، من وجهة نظري، في تزايد الاهتمام بالبلاغة في الوقت الراهن هو ازدهار دراسات البلاغة في السياق الغربي. لقد أصبحت الدراسات البلاغية حقلا نشطًا مثيرًا للاهتمام في الأكاديميات الغربية؛ وبخاصة في فرنسا وأمريكا. والدراسات العربية الحديثة عرفت شكلا ما من أشكال الارتباط بالاهتمامات البحثية الغربية فيما يشبه ثنائية الصوت والصدى. وكان تحول البلاغة إلى موضة بحثية في الغرب، عاملا حاسمًا في تزايد الاهتمام العربي بها؛ خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن تأثير الانشغال الغربي بالبلاغة، لم يكن قوي التأثير في منهجية الدرس وموضوعاته ومنظوراته، على نحو ما سيكشف استقصاؤنا لأهم توجهات الدرس البلاغي في العقود الأربع الأخيرة.

يمكن التمييز بين توجهات عدة للدرس البلاغي الراهن، وتقديم تصنيفات متنوعة لها. فيمكن، على سبيل المثال، تصنيف الدراسات البلاغية استنادًا إلى المدونات المدروسة؛ لنكون، مثلا، أمام بلاغة سياسية معنية بالنصوص والخطابات السياسية؛ وبلاغة دينية وأخرى أدبية وعلمية..إلى آخره. لكن مثل هذا التصنيف في الحقيقة لا يقول الشيء الكثير؛ إذ يمكن أن تتجاور دراسات تُسمي نفسها بلاغية، وتتخذ من نصوص وخطابات دينية مثلاً مدونة لها، لكنها تتحرك في دوائر مستقلة من حيث المنهج والمعالجة والغاية والسؤال البحثي، ويصبح ما يجمعها أقل كثيرًا مما يفرقها. لذا فقد اخترتُ أن أقدم تصنيفًا مختلفًا للدرس البلاغي، يقوم على استكشاف المنظور والمقاربة التي تتبناها هذه الدراسات، فهو تصنيف أقرب إلى منهجيات الدرس البلاغي منه إلى موضوعاته. وقد تشكل لدي انطباع من اطلاعي على مدار العقدين الماضيين على كم كبير من الدراسات البلاغية أن بؤرة الاهتمام البلاغي العربي ما تزال البلاغة القديمة، بموضوعاتها وكتبها وقضاياها ورجالها. على الرغم من ذلك، فإن قدرًا لا بأس به من الدراسات البلاغية حاولتْ أن تفلت من مركزية البلاغة القديمة لتؤسس هامشًا مغايرًا للبحث، ترتاد من خلاله آفاقًا جديدة في الدرس البلاغي. وما سوف أقوم به على مدار الصفحات الآتية هو تقديم ملامح شديدة الإيجاز لبلاغة المركز وبلاغات الهامش.

١. بلاغة المركز: (إعادة) إنتاج البلاغة التقليدية

يلاحظ المتتبع للدرس البلاغي العربي أن البلاغة القديمة ما تزال تحظى بنصيب الأسد من الدراسات البلاغية الراهنة. بالطبع نحن بحاجة إلى إحصاءات دقيقة للبرهنة على هذه الملاحظة، لا يُقتصر فيها على حصر الكتب والمقالات المعنية بالبلاغة العربية، بل أيضًا الأطروحات الجامعية التي تشكل رافدًا مهمًا من روافد البحث في البلاغة، والذي تُهيمن عليه إلى حد كبير دراسات البلاغة التقليدية.

أعني بدراسات البلاغة التقليدية الدراسات المعنية بتحليل التراث البلاغي العربي وقراءته وشرحه وتلخيصه والتعليق عليه مستندة إلى أطر ومناهج ومقاربات محايثة لهذا التراث، ومنقطعة الصلة أو غير وثيقة الصلة بالمنظورات والمناهج والأطر البلاغية المعاصرة (هل يمكن أن نقول الغربية؟). واستنادًا إلى هذا التعريف فإن مؤلفات تيسير البلاغة القديمة، وعرض محتواها، وشرح قضاياها، والتأريخ لرجالها ومباحثها، وتحقيق مصادرها، وتلخيص ما تراكم فيها حول أسلوب أو ظاهرة أو قضية ما تنتمي جميعًا إلى البلاغة التقليدية. وهذه المؤلفات تشكل القدر الأكبر من الدرس البلاغي العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الوقت الراهن، إلى حد يمكن اعتبارها مركز الدرس البلاغي العربي. إن معيار هذا التصنيف ليس عناوين البحوث، أو ادعاءاتها، بل المقاربات والمنظورات والمنهجيات الفعلية المستخدمة في معالجاتها البحثية.

هذه الكتابات تتسم بأنها تقوم على تصور للبلاغة العربية يراها مكتملة ومغلقة في الوقت ذاته. ومن ثمَّ، فإن كثيرًا من هذه الدراسات – خاصة في الأكاديميات التقليدية – مثل المؤسسات التعليمية ذات الطابع الديني في العالم العربي – تنظر إلى البلاغة الحديثة والمعاصرة، بقدر كبير من الريبة. وعادة ما يكون التساؤل الأول حول الدراسات البلاغية المعاصرة موجهًا نحو مدى أهلية الدراسات المغايرة لها لكي تندرج بالفعل في إطار «البلاغة».

تشترك الدراسات البلاغية التقليدية، إضافة إلى ما سبق، في انشغالها المركزي بالتراث، والتقدير الاستثنائي للنصوص العليا، وتجاهل خطابات الحياة اليومية، على نحو ما سنعرض بالتفصيل في استكشافنا للتحديات التي تواجه الدرس البلاغي العربي المتمركز حول البلاغة التقليدية.

٢. البلاغة بوصفها أسلوبيةً:
مأزق الإزاحة وأسطورة موت العلوم

منذ أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، حين صدر كتاب «الأسلوب» لأحمد الشايب، قُدّمت دراسة الأسلوب بوصفها أفقًا واعدًا للبلاغة العربية، ومخرجًا جيدًا لمأزق صعوبة تحديث البلاغة القديمة، خاصة بلاغة شروح التلخيص، من دون التضحية بها. غير أن الدرس البلاغي العربي كان بحاجة إلى ثلاثة عقود على الأقل، لكي يُعلن بجلاء أن الأسلوبية (أو علم الأسلوب أو الأسلوبيات) هي وريث البلاغة العربية. وفي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين أصبحت الأسلوبية، صرعة العصر، وقناع الدرس البلاغي. وتشكلت عدة استعارات لتصف مجازيًا العلاقة بين العلم الناشيء والعلم العجوز، كانت أبرزها استعارة «الجدة- الحفيد»؛ التي كانت تشي ضمنيًا بأن البلاغة قد سلّمَتْ للأسلوبية مفاتيح حقلها المعرفي، وأنها توشك على الرحيل. ولم يكن تعبير «موت البلاغة»، بكل دمويته الرمزية، وما حمله من دلالات إزاحة الأب المعرفي (أو قتله)، إلا امتدادًا لاستعارة الإرث التصورية التي صاغت جانبًا من العلاقة بين البلاغة والأسلوبية في وعي كثير من المحدثين.

لقد أفادت الأسلوبيات العربية بالفعل من بعض أهم إسهامات البلاغة العربية القديمة؛ خاصة قوائم تصنيف الأساليب البلاغية، المدهشة في ضخامتها وتعقيدها إلى حد الإرهاق. وهي تصنيفات يتميز بعضها بدقة الصياغة المفاهيمية وبراعة الاختيار المصطلحي. وفي الحقيقة فإن الأسلوبيين العرب لم يكن لهم غنى عنها في أي تحليل أسلوبي دقيق للنصوص العربية. حتى هؤلاء الذين انتقدوا هذه التصنيفات بوصفها مقطّعة لأواصر النصوص، وموغلة في التفريع، ومضطربة في

بناها الاصطلاحية، وشكلية، وخالية من روح الأدب.. إلى آخره من انتقادات – حتى هؤلاء لم يجدوا مفرًا من استخدام بعض هذه العُدّة البلاغية في تحليلاتهم النصّيّة. إضافة إلى ذلك، أفاد الأسلوبيون العرب من تراث غني من التحليلات النصية البلاغية القديمة. وهي تحليلات لم تفتقد إلى بصيرة المحللين، ولا إلى رهافة أدوات التحليل. وتكفي فقط الإشارة إلى الذخيرة الهائلة من تحليلات الأساليب في القرآن الكريم، التي يمكن اعتبارها إسهامًا أصيلا للبلاغة العربية، يضعها في مصاف أهم البلاغات في تاريخ العالم. وأخيرًا فقد أفاد الأسلوبيون العرب من أطر نظرية حاولت تقديم تصورات شبه مكتملة تفسر جماليات النصوص العليا في التراث العربي (وبخاصة القرآن الكريم والشعر). وبالطبع فإن نظرية النظم، وبخاصة صياغتها الجرجانية وتطبيقاتها الجرجانية-الزمخشرية، كانت الأوفر حضورًا في الكتابات الأسلوبية العربية. هذا الحضور الباهظ للتراث البلاغي العربي، وصل إلى حدّ أن بعض الدراسات الأسلوبية، تكاد تكون دراسات بلاغية تقليدية ضلّت عناوينها، ووقفت تحت اللافتة الخطأ. وعلى وجه التحديد، فإن الكثير من هذه الدراسات لم يتجاوز دراسة الأساليب على مستوى الجملة أو العبارة إلى النص والخطاب، ولم يكن معنيًا باستكشاف العلاقات النصية بين الأساليب، أو خصوصياتها، أو تحليل الوظائف الأسلوبية على مستوى البنى الكبرى للنص، وغيرها مما يميز التحليل الأسلوبي عن التحليل البلاغي التقليدي. على الرغم من ذلك، لم يحل فشل كثير من هذه الدراسات في تأسيس درس أسلوبي أصيل - خاصة تلك التي اختار أصحابها أن يكونوا مجرد صدىً لأصوات مشوهة - من التشدق بضرورة تجاوز البلاغة، بل حفر قبرها، وتهيئة الباحثين لوقائع تلقي العزاء.

العلوم القديمة، مثل طائر الفينيق الأسطوري، لا تقبل الفناء. والبلاغة مولعة بالانبعاث من الرماد، وما يُدفن في النهاية، إنما هم حفارو القبور، الذين يعلنون موت معارف عامرة بالحياة. ولم يكن الانزواء التدريجي للأسلوبية، والانتعاش التدريجي أيضًا للبلاغة سوى فصل جديد من فصول التغاير والتعاقب، التي تشكل تاريخ العلوم. فبعد أقل من أربعة عقود من صرعة الأسلوبية، انحسرت أضواء موضة، لتصعد موضات. ومارست البلاغة حيلتها القديمة في التجدد، عبر علاقات المصاهرة المعرفية مع العلوم وثيقة الصلة. وكانت التداولية والسيميائية وتحليل الخطاب أطراف زيجات جديدة، استعادت من خلالها البلاغة زينة العروس.

٣. التداولية البلاغية: في مديح تزاوج المعارف

نشأت التداولية بوصفها بُعدًا من أبعاد التحليل اللغوي، يركّز على دراسة اللغة الطبيعية في سياقات الاستعمال. وانشغل الباحثون المعنيون بها بدراسة ظواهر مثل أفعال الكلام، والاستلزام والتضمين، والتأدب، ومقتضى الحال، والمقصدية، والمضمر.. إلى آخره من تجليات العلاقة بين اللغة والسياق. وكان من الطبيعي أن تكون البلاغة أحد العلوم المساهمة في نشأة التداولية وتوجيهها. وربما وجدت البلاغة السكاكية، على وجه التحديد، في التداولية أملاً منشودًا لإضفاء طابع حداثي على تراكمها المعرفي الأصيل. فبلاغة السكاكي التي تضع المقام في قلب العملية البلاغية، تجدى صدى صوتها في التداولية التي تضع السياق في بؤرة اهتمامها. ولم يكن من الغريب أن تنصرف دراسات عربية عدة إلى الربط بين مقولات بلاغية (سكاكية)، وأفكار تداولية معاصرة. وعلى الشاطئ الآخر، لم يكن من الغريب أن يُطلق أحد أبرز التداوليين الغربيين، أعني بول جرايس Paul Grice، على أحد أشهر قوانين التداولية المعنية بالاستلزام الحواري اسم «مبادئ البلاغة» Maxims of Rhetoric.

لكن التجلي الأبرز للصلة بين البلاغة والتداولية كانت نظرية أفعال الكلام speech act theory لأوستن وسيرل وغيرهما. وكان لإدراك هذه الصلة الوثيقة بين العلمين الأثر الأكبر في انقسام التداولية إلى قسمين تداولية صورية Formal Pragmatics وتداولية بلاغية Rhetorical Pragmatics. وبالطبع فإن هذا التزاوج بين البلاغة والتداولية يبدو مثمرًا للغاية، خاصة في السياق العربي. وما زلنا بحاجة إلى دراسات تستكشف مناطق

التداخل بين العلمين من ناحية، وتفيد من منجزات كليهما المعرفية؛ لتحقيق فهم أفضل لكيفية عمل اللغة في السياق من ناحية أخرى.

٤. البلاغة ساحة لدراسة الحجاج:

من الأرسطية القديمة إلى الأرسطية الجديدة

منذ دشن أرسطو مقاربته الشهيرة للبلاغة عبر كتاب «الخطابة»، أصبحت دراسة الحجج (أنواعها ومصادرها وترتيبها وصياغتها) اهتمامًا أصيلا من اهتمامات البلاغة. ولم يكن من الغريب أن تحظى الأقيسة البلاغية الظنية والاحتمالية (الإقناعية) بمرتبة وسط في أورجانون أرسطو بين الأقيسة البرهانية والأقيسة الجدلية من ناحية والأقيسة التخييلية (الشعرية) من ناحية أخرى. بالطبع شهد هذا الاهتمام بالحجاج على مدار القرون التالية تفاوتًا بين الصعود والهبوط، نتيجة تغاير الاهتمامات البلاغية. فقد تصاعد الاهتمام بالصور البلاغية figures of speech في البلاغة اللاتينية على حساب دراسة الحجاج، واستمر التأرجح بينهما لعدة قرون، حتى هيمن الاهتمام بالصور البلاغية، والأساليب على حقل الدراسات البلاغية منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن العشرين.

لم يكن حظ دراسة الحجاج في البلاغة العربية أوفر منه في البلاغة اليونانية. فقد عُني العرب بالفصل الثالث من كتاب الخطابة، وهو الخاص بالأسلوب، العناية الأكبر على حساب الفصلين السابقين الذي درس أولهما أغراض الخطابة وسياقاتها وأنواعها، ودرس ثانيهما الوسائل الثلاثة الأساسية للإقناع، الإيتوس، والباتوس، واللوجوس، والذي تناول فيه بالتفصيل مصادر الحجج وأنواعها١. وباستثناء كتابات الفلاسفة المسلمين (شراح أرسطو)، وبعض الكتابات البلاغية المعضودة بالفلسفة (مثل منهاج البلغاء للقرطاجني والمنزع البديع للسجلماسي وغيرهما)، لم تحظ دراسة الحجاج (والمقولات الإقناعية في العموم) باهتمام كبير لدى البلاغيين العرب.

ومثلما كان الاهتمام العربي القديم بالحجاج مدعومًا بترجمة «الخطابة on Rhetoric» لأرسطو، فإن الاهتمام العربي الحديث بالحجاج كان مدعومًا بإحياء أرسطو، أو ما يُعرف بالأرسطية الجديدة. وكان كتاب «الخطابة الجديدة New Rhetoric»، لبيرلمان ووأولبريشتا أيقونة الاهتمام الجديد، والصلة جلية بين الخطابة لأرسطو، والخطابة (الجديدة) وهي صلة تتجاوز التناص مع العنوان إلى إحياء الأطروحات الجوهرية وتطويرها.

وبمثل ما كان بلاغيو دول المغرب العربي هم الأكثر احتفاءً بخطابة أرسطو، كان خلفهم هم أيضًا الأكثر احتفاءً بالتجلي البلاغي للأرسطية الجديدة (الخطابة الجديدة) كما دشنتها كتابات حاييم بيرلمان وزملائه. وفي هذا الأمر ما قد يبدو أنه مصادفة تاريخية، لكنه في الحقيقة أمر لا يخلو من مغزى. لكن هذا الاهتمام بالحجاج سرعان ما تجاوز الدول المغاربية وأصبح الباحثون في البلاغة العربية على اتساع العالم العربي ينظرون إلى دراسة الحجاج في النصوص والخطابات بوصفها الموضوع البلاغي الأثير، أو بصياغة سلعية «موضة البلاغة».

على الرغم من أن بعض دراسات الحجاج في العالم العربي تقدم إسهامًا مهمًا في فهم الإقناع، فإن هذا التيار من البحث البلاغي يعاني من بعض المشكلات؛ لعل أهمها هو تركز الاهتمام على تحليل الحجاج في النصوص العليا (القرآن الكريم، الشعر، النثر الأدبي) والقليل منها يوجه اهتمامه إلى تحليل نصوص وخطابات يومية خارج إطار الأدب أو النصوص المقدسة. كما أن كثيرًا من هذه الدراسات لا تطور خلفيتها المعرفية ولا إجراءات تحليلها، ويرجع ذلك – في رأيي- إلى أمرين: الأول هو الاعتماد بشكل أساسي على ترجمات محدودة لأدبيات مكتوبة بالفرنسية مثل أعمال بيرلمان وأعمال أوزفالد ديكرو، نظرًا للتأثير الفرنكفوني على رواد المشتغلين بالحجاج، الذين وضعوا اللبنات الأساس لدراسته. وفي المقابل تقل إمكانيات الإفادة من الدراسات الأنجلو سكسونية حول الحجاج، والتي تشهد ازدهارًا متصاعدًا على مدار العقدين الماضيين. أما الأمر الثاني، فهو الاعتماد على مؤلفات قديمة نسبيًا، بسبب الندرة النسبية في الأعمال المترجمة الراهنة (أقصد المؤلّفة في القرن الحادي والعشرين)، وتراجع قدرة الباحثين في كثير

من أنحاء العالم العربي، بما فيها الدول المغاربية، على التواصل مع الكتابات الأجنبية في لغاتها الأصلية، فمعظم الكتابات التي يُعتمد عليها تعود إلى فترة ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. وأخيرًا فإن مراجعةً نقدية لكثير من الدراسات العربية الراهنة حول الحجاج سوف تضعنا أمام واقع مؤلم وهو أن معظمها يقوم على استنساخ الأطر النظرية، وإجراءات التحليل، وربما التقسيم الهيكلي للبحوث، والاكتفاء بتغيير مدونات البحوث. وهو ما يجعل إضافات مثل هذه الدراسات إلى العلم محدودة للغاية.

٥. البلاغة المرئية: تحالف البلاغة والسيميوطيقا

شهد العصر الحديث تحولا جذريًا في مدى وتأثير حضور العلامات غير اللغوية في الفضاء الشخصي والعام في أرجاء العالم. واستأثرت الصور على وجه التحديد بمكانة استثنائية بين العلامات غير اللغوية، إلى حد إطلاق تسمية «عصر الصورة»، على العالم ما بعد اختراع التلفزيون وإعلانات الشوارع! هذا التحول في درجة انتشار العلامات غير اللغوية وتأثيرها كان له صدى في مسار علم البلاغة، المشغول أساسًا بطرق إنجاز الإقناع والتأثير. لقد كان الكلام هو الأداة الأساسية التي اهتم البلاغيون على مدار تاريخهم بدراسة سبل استخدامها في تحقيق الإقناع والتأثير، لكنهم ما كانوا يستطيعون تجاهل التغير الجذري الحادث في تأثير العلامات الأخرى. فمنذ منتصف القرن العشرين بدا جليًّا أن العالم يعيش زمن «العلامات المتعددة multi-modality»؛ حيث إنه في معظم التجليات الخطابية الراهنة تتجاور الكلمة وتترابط وتتخاصم وتتعارض وتتساند مع الصورة واللون والحركة والإشارة والصوت والنغم..إلى آخره.

وكان ظهور السيميائية بوصفها علمًا للعلامات كافة (بما فيها اللغة)، خطوة نحو تعبيد طريق الدرس البلاغي للعلامات غير اللغوية. وكانت الروابط القوية بين السيميائية وتحليل الخطاب - التي وصلت إلى حد التداخل والاختلاط - انعكاسًا لتشابك العلامات في الخطابات الإنسانية المعاصرة. وليس من المستغرب أن الكثير من الجهد البحثي في البلاغة وتحليل الخطاب في اللحظة الراهنة ينصرف إلى تحليل علامات غير لغوية٢. كما كان من الطبيعي - لنفس الأسباب- ظهور توجه كامل في إطار تحليل الخطاب معني بالتهجين العلاماتي٣.

تُعد كتابات رولان بارت حول بلاغة الصورة وكتاب جماعة مو الشهير «بحث في العلامة المرئية: من أجل بلاغة الصورة» من الإسهامات المبكرة الساعية نحو إحداث تزاوج بين البلاغة والسيميائية. وعادة تحيل الكتابات العربية إلى هذه الأعمال وامتداداتها بوصفها الأساس النظري للمقاربة البلاغية للصور والعلامات غير اللفظية. غير أن هناك توجه مستقل في الدرس البلاغي وثيق الصلة وإن كان غير معروف لدينا، فقد ظهر في تسعينيات القرن العشرين فرع معرفي بلاغي معني بالصور هو البلاغة المرئية visual rhetoric؛ حيث تُدرس الفضاءات البصرية، سواء في الواقع الفعلي، أو الافتراضي؛ كما هو الحال في الإنترنت. وفي الحقيقة فإن الدراسات العربية في البلاغة المرئية ما تزال محدودة، على الرغم من أهمية البحث فيها، خاصة البحوث التطبيقية.

٦. البلاغة ولسانيات النص

لسانيات النص من بين العلوم المهمة التي اقترنت بالأدبيات البلاغية العربية في العقود الثلاثة الماضية. وعلى الرغم من أن اللسانيات استطاعت تقديم نفسها بوصفه حقلا معرفيًا قائمًا بذاته فإن هناك دومًا محاولات عدة لإحداث مزج أو تعاون بينها وبين البلاغة، وصولا إلى محاولات استبدال البلاغة نفسهل لتحل لسانيات النص محلها.

يمكن إيجاز أهم نقاط التقاء لسانيات النص بالبلاغة العربية فيما يأتي:

١. تقدم التحليلات البلاغية العربية إسهامات مهمة تساعد في استكشاف معيارين مهمين من معايير النصية وهما السبك والحبك (أو الترابط النصي والمعنوي على اختلاف الترجمات). كما وفرت الذخيرة الضخمة من الكتابات البلاغية المتعلقة بالسياق ومقتضى الحال ومراعاة المخاطب

مادة أولية لدراسة معيارين آخرين هما القصدية والموقفية. إضافة إلى ذلك، وفرت دراسات النقد البلاغي عدة اصطلاحية ومفاهيمية شُغلت أحيانًا في معالجة معيار خامس أعني معيار التناص.

٢. أتاحت لسانيات النص معالجة بعض أبواب البلاغة التقليدية، مثل البديع، من منظور يصحح إحدى مشكلات البلاغة القديمة، وهي الانطلاق من الجملة بوصفها وحدة التحليل. ولعل دراسات د. سعد مصلوح من بين أهم الكتابات التي عالجت هذه المنطقة بأدوات رصينة كاشفة.

لقد أتاحت لسانيات النص للبلاغيين العرب تشغيل الجهاز المفاهيمي والتحليل التراثي شديد الثراء، غير أن كثيرًا من الدراسات العربية في لسانيات النص المدعومة بلاغيًا (إن صحت التسمية) تُعد تجسيدًا للعقم البحثي. فمعظم هذه الدراسات يتكئ على خلفية نظرية شديدة المحدودية، تتمثل في عدة كتب صدرت في سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين، في حين ينقطع اتصالها بالتطويرات المهمة في لسانيات النص على مستوى المصدر الغربي الذي تتكئ عليه. لكن التجلي الأبرز للعقم البحثي إنما يكمن في أن أغلب هذه الدراسات ليست إلا إعادة إنتاج حرفي لدراسات سابقة، مع تغيير المدونة فقط، وكأن مهمة الباحث هي إحلال شاهد من مدونة محل شاهد من مدونة أخرى في بحث سابق. ولعل ما ساعد على هذا مدرسية الإطار المستخدم في التحليل النصي، إضافة بالطبع إلى المأزق الجذري للبحث العلمي في العالم العربي؛ أعني افتقاد الخيال.

٧. البلاغة وتحليل الخطاب

تحليل الخطاب، موضة اللحظة البحثية الراهن في الدراسات اللسانية والأدبية في العالم العربي، لافتة وسيعة يقف تحتها كل الباحثين عن أرضية لمقاربة جديدة. وقد كانت البلاغة من بين العلوم العربية التي اقترنت بتحليل الخطاب منذ بواكير نشأته سواء في الأدبيات العربية أو الغربية. ويكشف فان دايك في مقدمته المهمة لكتابه المحرر من أربعة مجلدات عن تحليل الخطاب (٢٠٠٨) عن أن البلاغة يمكن أن تكون عنوانًا بديلا لتحليل الخطاب إذا نظرنا إليها بوصفها علمَ الخطاب، على نحو ما كان يُدركها أرسطو على سبيل المثال. غير أن البلاغة سوف تُختزل لتصبح معينًا في تحليل مستوى من مستويات تحليل الخطاب إذا نظرنا إليها بوصفها علمًا للصور البلاغية، على نحو ما استقر عليها حالها في أوروبا لعدة قرون قبل العصر الحديث.

ما تزال الدراسات العربية تستكشف حدود العلاقة بين البلاغة وتحليل الخطاب، عبر الممارسة. لا يُقدم تحليل الخطاب منهجًا تحليليًا منضبطًا أو إطارًا مغلقًا لمعالجة الخطاب، بل يقدم منظورًا لمقاربته، فهو ليس منهجًا بل بالأحرى حقل معرفي يتسم بالمرونة والتنوع الهائلين. ولا يقتصر هذا التنوع فحسب على أدوات التحليل وإجراءاته، بل يتجاوزه إلى الأسس النظرية التي يقوم عليها. وهي شديد التنوع والتباين اتساع التباين بين نحو الخطاب وتحليل المحادثة وتحليل الخطاب السردي على سبيل المثال. هذا الوضع القائم على التنوع في تحليل الخطاب ربما كان وراء سهولة ادعاء انتماء كم هائل من الدراسات في العلوم الإنسانية قاطبة إليه، إلى حد يبدو معه الحقل المعرفي لتحليل الخطاب متسمًا بميوعة لم يشهدها حقل معرفي مماثل تقريبًا. وبالنسبة للكثيرين فإن هذا الوضع يبدو غير مريحًا، لأن البوابات الوسيعة عادة ما تكون مفتقدة للملامح. لكنني أرى أن هذا الاتساع في الحقل المعرفي لتحليل الخطاب علامة إيجابية، وأنه لا يحول دون تشكل هوية متمايزة لدراسات الخطاب؛ تستند إلى الانطلاق من فهم مشترك لطبيعة الخطاب، وسعي مشترك لتحليل اللغة في الاستعمال الفعلي، وتركيز مشترك على تحليل خطابات الحياة اليومية، وتجاوز للمقاربات الوصفية والمعيارية إلى المقاربات النقدية، وحرص مشترك على التعاطف مع المهمشين والخاضعين، وكل من يتعرضون لأشكال اللامساواة الاجتماعية.

السؤال الذي يُثار هنا هو: أين البلاغة (والبلاغة العربية تحديدًا) من هذا الحقل الشاسع؟ يمكن أن تتبنى إجابة فان دايك المريحة، لكنني أظن أن الأمر ليس

بهذه البساطة. فعلى الرغم من أن البلاغة بالفعل كانت علمًا للخطاب، فإنها لا يمكن أبدًا أن تتماهى مع تحليل الخطاب، بسبب فرق جذري هو أن تحليل الخطاب يتبنى مقاربة نقدية تجاه الظواهر الخطابية التي يدرسها، في مقابل المقاربة المعيارية التي حكمت منظور البلاغة لقرون طويلة، حين كانت علمًا للخطاب. كما أن البلاغات المحلية (مثل بلاغة السكاكي في العالم العربي) سوف تظل قائمة بوصفها معرفة بلاغية شبه مستقلة ومتمايزة. وفي الحقيقة فإنني أنظر بحذر شديد لكل دعاوى الحلول بين العلوم. وأرى أنه لا يمكن تبنيها إلا لو اضطر المرء إلى غض الطرف عن التمايزات الفعلية بينها.

على الرغم من ذلك، فإنني أعتقد أن العلاقة بين البلاغة وتحليل الخطاب وثيقة بالفعل، وأنها يمكن أن تكون أقوى اتصالا وارتباطًا. وقد حاولت في دراسات سابقة أن أقدم مقترحًا للدمج بين البلاغة العربية وتحليل الخطاب من خلال إضافة بعد رابع إلى إحدى المقاربات شديدة الانتشار في دراسات الخطاب الراهن هي مقاربة اللساني البريطاني الشهير نورمان فيركلوف، مؤسس ما يُعرف بالتحليل النقدي للخطاب. ويقوم هذا المقترح على إضافة بُعد استجابة الجمهور إلى الأبعاد الثلاثة التي تؤسس إطار التحليل الذي يقترحه فيركلوف؛ وهي تحليل النص، وتحليل إنتاج الخطاب وتوزيعه، وتحليل العمليات الاجتماعية المحيطة به٤.

تحديات البلاغة العربية: تبئير المركز وتهميش التخوم

بعد الخريطة العامة التي قدمتها فيما سبق، يبدو للناظر أن البلاغة العربية الراهنة تواجه خمسة تحديات كبرى:

الأول: انشغالها بالتراث البلاغي العربي وإهمالها بدرجة ما للمنجزات النظرية والتطبيقية البلاغية المعاصرة. ويتجلى هذا الانشغال في أمور منها؛ كمّ البحوث المكرَّسة لدراسة النصوص التراثية قياسًا بتلك المكرسة لدراسة نصوصٍ معاصرةً؛ عربية أو غير عربية. إضافة إلى هيمنة مفاهيم تراثية للبلاغة على الإدراك الأكاديمي والشعبي للعلم، خاصة المفاهيم السكاكية؛ فحين تُذكر البلاغة غالبًا ما ينصرف الذهن – الأكاديمي والعام – إلى العلوم الثلاثة المشكِّلة للبلاغة العربية المدرسية. وقد يحتاج المرء إلى أن يُحاجج بإلحاح ليبرهن لقارئه أو محدِّثه أن ثمة «بلاغات» أخرى مغايرة.

الثاني: انشغالها بالنصوص العليا مثل القرآن الكريم والشعر والنثر الأدبي على حساب خطابات الحياة اليومية. لقد نشأت البلاغة في حضن الحياتي؛ وعاشت طفولتها في كنف الديني والاجتماعي والسياسي، وحين انشغلتْ – قديمًا - بنصوص مثل الوصية والحكمة والخطابة والشعر، كانت الوظائف التداولية لهذه النصوص هي حافز إنتاجها، في حين كانت الخصوصية الجمالية أداةً لتحقيق الوظائف التداولية. كانت هذه الأنواع تنتمي بالأساس إلى الحياتي، وليس إلى الأدبي. ورغم تغيُّر الزمن، فإن البلاغة العربية ظلت متشبثة بنصوصها؛ بغض النظر عن تغيُّر وظائفها. وقد أدى هذا إلى استمرار التركيز على نصوص انتقلت بشكل شبه كلي من دائرة الحياتي إلى دائرة الأدبي، ومن هيمنة الوظيفة التداولية إلى هيمنة الوظيفة الشعرية (الجمالية). وكان عدم التفطن لوظيفة البلاغة بوصفها الحقل المعرفي الذي يدرس الإقناع والتأثير في الفضاء العام، أي يدرس الحياتي اليومي (ولنقل دون حرج «الشعبي» أيضًا)، حاجزًا دون الاهتمام بنصوص وأنواع وخطابات حياة يومية جديدة، تشكَّلتْ – أو تكاد - بمعزل عن علم البلاغة القديمة. وكان من نتائج ذلك ظهور تحدٍ جديد، هو انعزال البلاغة بوصفها علمًا عن خطابات الحياة المعيشة، بوصفها غاية العلم ووعاءه.

الثالث: انفصال البلاغة في كثير من دراساتها عن مشكلات المجتمع وتحولها إلى ممارسة أكاديمية شبه منعزلة عن سياقات إنتاجها الاجتماعية والسياسية. فقد كان أبرز ملامح مشاريع تحديث البلاغة في النصف الأول من القرن العشرين هو السعي الحميم إلى توثيق العُرَى بينها وبين طموحات المجتمعات العربية الناهضة، خاصة في الثلاثينيات والأربعينيات. ومن هذه الزاوية، يمكن القول إن مشروع الخولي لتحديث البلاغة - في وجهٍ من وجوهه - مشروع تربوي، هدفه إصلاح الذائقة الفنية للمعلمين والطلاب معًا. وكتابه فن القول (الذي

يدعو فيه إلى إحلال علم للإنشاء محل البلاغة السكاكية التقليدية) هو التجلي الأبرز لذلك٥. أما دعوة سلامة موسى لتطوير البلاغة - في كتابه «البلاغة العصرية واللغة العربية»- فكانت وثيقة الصلة بمشروعه للنهوض بالمجتمع. فقد دعا إلى بلاغة جديدة تخدم الحياة العصرية، وتشارك في تطوير الأمم؛ بلاغة تنجز أربع غايات أساسية هي (١) الوصول إلى التفكير المنطقي السديد الذي يؤمَن فيه من الخطأ؛ (٢) تحريك الذكاء، وتدريبه بالكلمات؛ (٣) معرفة كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي؛ (٤) معرفة كيف تُستعمل الكلمات للتحريك الاجتماعي٦.» حتى الكتابات التي كانت تنتصر للأساليب القديمة مثل كتاب أحمد حسن الزيات «دفاع عن البلاغة»، الذي يحاكم فيه لغة الصحافة في أربعينيات القرن العشرين، كانت تنطلق من فرضية غير معلنة هي الصلة الوثيقة بين البلاغة والممارسات اللغوية الحياتية في المجتمع.

لم تستطع دعوات الربط بين البلاغة والمجتمع الصمود أمام اختبار الزمن. ربما يرجع ذلك إلى أن أغلبها لم يتحول من دعوات وطموحات إلى مشاريع وخطط عمل تفصيلية. كما أن مناخ الحريات الأكاديمية والمعرفية الذي أُنجزت فيه هذه الدعوات قد تغيَّر بشكل جذري في خمسينيات القرن العشرين وستينياته؛ فبصعود الحركات العسكرية إلى سُدَّة الحكم عرفت جمهوريات العالم العربي الناشئة تقييدًا واسعًا للحريات الأكاديمية والمجتمعية، وكان من جرَّاء ذلك أن تراجعت دعوات ربط البلاغة والمجتمع، وبدأ فصل جديد من فصول التجديد؛ انشغلت فيه البلاغة بدراسة الأساليب، وعادت مرة أخرى إلى حضن التحليل الشكلي للأساليب والظواهر البلاغية، بمعزلٍ، في حالات كثيرة، عن سياقات إنتاجها واستهلاكها ووظائفها التداولية. وعلى الرغم من وجود بعض الجهود المتميزة لدراسة خطابات المجتمع، خاصة في العقدين الأخيرين، فإننا ما زلنا بحاجة إلى أن تتحول هذه الجهود إلى تيار مؤثِّر من تيارات الدرس البلاغي العربي.

الرابع: ضعف الاحتفاء بالطبيعة عبر النوعية لعلم البلاغة. لقد مهَّد الشيخ أمين الخولي لمشروعه في تحديث البلاغة أوائل القرن العشرين، بمحاضرات حول العلاقة بين علم البلاغة وعلوم أخرى من أبرزها علم الجغرافيا وعلم النفس. ويكشف هذا الصنيع عن وعيٍ مبكر بأن أيَّة محاولة لتجديد العلم، لابد أن تتضمن مراجعةً عميقة للعلاقة بينه وبين العلوم التي تتقاطع معه، أو تتداخل فيه، أو تنازعه موضوعه، أو تقدم له عُدَّة تحليلٍ أو آليات مقاربة. وهي شبكة كبيرة من العلوم؛ تتضمن – على سبيل المثال لا الحصر- علوم الاجتماع والنفس والسياسة والجغرافيا والأدب واللغة والتاريخ والفلسفة والتواصل والأنثروبولوجيا والاثنوغرافيا وغيرها. وربما لا يكون من المبالغ فيه القول إن كل العلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون القولية والأدائية ذات صلة بعلم البلاغة من زاوية أو أخرى، وبدرجات متنوعة. ومن ثمَّ، فإن أية محاولة لاستكشاف آفاق تحديثية لعلم البلاغة لابد أن تشمل مراجعة علاقته مع العلوم ذات الصلة، وإدراك أنه - في جوهره – علم بيني يحتضن معارف ومقاربات وخبرات إنسانية شديدة التنوع. من المؤكَّد، أن كثيرًا من الدراسات الحديثة والمعاصرة تنطلق من إدراك للعلاقات الوشيجة بين علم البلاغة وعلوم معاصرة مثل السيميائيات والتداولية وتحليل الخطاب وعلم اللغة والدراسات النقدية، غير أن هذه العلاقات لا تُدرَس – غالبًا- على نحو جلي، ولا تُناقش – دومًا- بشكل تفصيلي.

الخامس: بطء تطور البُعد التربوي والتدريسي للبلاغة بنفس درجة تطور بُعدها الأكاديمي. فقد شهِد الدرس البلاغي العربي محاولات متعددة للتطوير والتجديد على مدار القرن ونصف الماضيين. ومن الطبيعي أن يتأثر تدريس البلاغة العربية في الأكاديميات والمدارس العربية بهذه المحاولات، بما ينعكس على أهداف التدريس وطرقه ومناهجه ومقرراته وأساليب تقييمه ووسائطه وغيرها. غير أن إطلالة بانورامية على ما أتيح لي الاطلاع عليه من كتب البلاغة التعليمية في العالم العربي المنساب بأريحية بين خليج ومحيط تبرهن على وجود فجوة كبيرة بين التطور في دراسة البلاغة وفي تدريسها. فما زالت البلاغة السكاكية بتقسيماتها التقليدية ومسائلها وشواهدها ولغتها مهيمنة على تدريس البلاغة

العربية. وتكاد تتوقف محاولات تطوير تدريس البلاغة على إجراء تغييرات محدودة في المتن السكاكي؛ غالبًا ما تشمل حذف بعض التفريعات، وتقليص الشواهد، والتخفيف من حضور القضايا الجدلية، والنقاشات الخلافية، وإحلال بعض الشواهد الحديثة محل القديمة، وإدراج بعض المقدمات الافتتاحية الممهِّدة للأبواب البلاغية. ومن الجلي أنَّ البلاغة السكاكية ليست – في أفضل الأحوال- إلا توجهًا من توجهات البلاغة العربية في مرحلةٍ من مراحل تطورها، وأن أيَّة محاولة أمينة لتدريس البلاغة، لابد أن تحتفي بتوجهات أخرى في إطار البلاغة العربية وخارجها أيضًا.

آفاق تطوير البلاغة العربية: تبئير التخوم

تفرض هذه التحديات على البلاغيين العرب السعي نحو تطوير الدرس البلاغي العربي بشكل جزئي أو كلي. ومن الطبيعي أن تظهر محاولات عديدة لإنجاز هذا التطوير، أو التبشير به على الأقل. لقد حاولتُ على مدار العقدين الماضيين إنجاز مشروع معرفي لتطوير البلاغة العربية وتحديثها، يقوم على ثلاثة أسس؛ هي، أولاً، مراجعة أسس العلم؛ من حيث وظائفه ومادته وتاريخه وجمهوره؛ وثانيًا، مراجعة أداوت العلم؛ من حيث لغته ومناهجه؛ وثالثًا، مراجعة علاقة علم البلاغة بمحيطه المعرفي؛ في محاولة لتبئير تخومه المعرفية. ولأن كل تطوير لابد أن يقوم على أسس واضحة، فإن الكشف عن مخططات المشروع ومساراته، والتأمل النقدي لممارساته واختياراته، يمثل ضمانة لازمة لاستمراره وتراكم المعرفة فيه. ومن هنا فإنني سوف أقوم على مدار الصفحات الآتية بتحديد الأبعاد المختلفة لمشروعي في تطوير البلاغة.

اتخذ المشروع الذي انتهجته لتطوير البلاغة العربية خمس مسارات متساندة: الأول اقتراح توجه جديد في البلاغة العربية معني بدراسة استجابات الجماهير بلاغة الجمهور في الخطابات العامة؛ والثاني: النظر في المادة البلاغية المدروسة ومراجعة مناهج دراستها؛ واختص المسار الثالث بالنظر في وظيفة علم البلاغة، وطبيعة الجمهور الذي يتلقى دراساته. أما المسار الرابع فخصص لإعادة النظر في جمهور علم البلاغة؛ بينما قدم المسار الخامس مراجعة لجذور علم البلاغة، واستكشاف البلاغات المهمشة وتبئيرها؛. وسوف أقدم فيما يأتي تعريفًا مختصرًا بهذه المسارات الخمسة.

أولاً: بلاغة الجمهور:

تهدف بلاغة الجمهور/ المخاطب، إلى اقتراح توجه بلاغي يكون معنيًا بدراسة استجابات الجماهير في الفضاء العام. تتخذ بلاغة الجمهور من «طبيعة الاستجابات البلاغية الفعلية والمحتملة للمخاطب الذي يتلقى خطابًا عامًا موضوعا لدراستها، كما تحاول أن تطور مقاربة خاصة لدراسة هذه الاستجابة»٧. فموضوع بلاغة الجمهور إذن هو الاستجابات التي يُنتجها الجمهور أثناء تلقيهم للخطابات الجماهيرية التي تبثها وسائل الإعلام. وهي تُعنى بشكل أساس بالعلاقة بين هذه الاستجابات والسلطة التي يمثلها الخطاب الجماهيري أو يسعى لترسيخها أو إضفاء الشرعية عليها. والغاية الأساسية لها هي تقديم أدوات للجمهور تساعدهم على تطويع استجاباتهم أو تغييرها بما يحقق مصالحهم العامة وليس مصالح المسيطرين على الخطابات الجماهيرية. هذه الاستجابات الجديدة أو المعدلة يمكن التعامل معها بوصفها استجابات بلاغية، تساعد على تحقيق أهداف الجماهير ومصالحها.

تحاول بلاغة الجمهور إعادة رسم حدود البلاغة العربية مع العلوم الأخرى؛ لتنفتح على بلاغة الحياة اليومية، وتغدو علما بينيا تتلاقى فيه علوم الاتصال والاجتماع والأنثربولوجيا والعلوم السياسية وعلم النفس وتحليل الخطاب. وينشأ عن ذلك تغير في إدراك الظواهر البلاغية يتم فيه إدراكها بوصفها ظواهر مجتمعية تتسم بالتعقد والتركيب، شأنها شأن بقية ظواهر المجتمع، وهو ما يفرض تطورا في مناهج وإجراءات دراستها بما يتيح فهمها وتحليلها وتقييمها وربما تقويمها. بلاغة الجمهور هي، من زاوية أخرى، محاولة لتخليص علم البلاغة من جزء من تاريخه السلبي. فعلى مدار قرون عديدة كانت البلاغة - (الغربية خاصة)- أداةً يستطيع من يتقن

استخدامها أن يسيطر- إلى درجة ما - على الآخرين.

ثانيًا: إعادة النظر في المادة البلاغية المدروسة ومنهجيات العلم وأدواته

انشغلت البلاغة العربية القديمة بالنصوص العليا في الثقافة العربية، ونادرًا ما أولت اهتمامها لنصوص الحياة اليومية وخطاباتها. فقد كان القرآن الكريم والشعر والحكم والأمثال هي متن تحليلاتها واستشهاداتها أيضًا. واستمر النظر إلى النصوص العليا بوصفها المدونة «الطبيعية» للبلاغة حتى وقتنا الراهن. وعادة ما تُثار أسئلة حول أهلية نصوص الحياة اليومية لأن توسم بالبلاغة؛ نتيجةً لخلط مفاهيمي بين البلاغة والأدبية من ناحية، وتجاهل أن نصوص الحياة اليومية إنما تمارس أشكالا قد تكون شديدة التعقيد من الإقناع والتأثير؛ على نحو ما نرى على سبيل المثال في بلاغة المساومة أو التسول.

لقد عملتُ على مدار العقدين الماضيين على تحويل بؤرة اهتمام الدرس البلاغي من مدونة الأدب إلى مدونة الحياة. وانصب اهتمامي البحثي على أنواع بلاغية مهمَّشة، مثل الخطب، والبيانات، ومقالات الصحف٨؛ وعلى أنواع جديدة يُنظر إليها على أنها تنتمي إلى خطابات الحياة اليومية مثل عروض الكلام (توك شو)، واللافتات، والشعارات، والجرافيتي، وتعليقات الصحف، والهتافات٩. كما قدمتُ دراسات عن الاستجابات غير اللغوية مثل التصفيق، والهتاف وغيرها من العلامات غير اللفظية١٠. ومن المأمول أن يقود مثل هذا التوجه نحو التركيز على خطابات الحياة اليومية ونصوصها في تغيير النموذج الإرشادي للبلاغة العربية.

لقد ارتبطت البلاغة المعاصرة في العالم العربي بالمنجز الغربي على نحو وثيق. وينظر البعض إلى هذا الواقع نظرات متشككة، وفي بعض الأحيان رافضة؛ استنادًا إلى دعاوى الاستقلال الفكري، أو التمايز الثقافي الجذري. غير أن واقع الحال، يؤكد أن الإيمان بعالمية المعرفة - مع الوعي بالخصوصيات الثقافية، ومخاطر الهيمنة الأكاديمية الغربية - شرط من شروط الإسهام المؤثر فيها. وقد سعى الباحث على مدار السنوات العشر الماضية إلى إتاحة الكتابات الأجنبية المؤسسة في البلاغة وتحليل الخطاب للقارئ والباحث العربي الراغب في تطوير خلفياته المعرفية أو منهجيات تحليله فيهما. تضمنت هذه الخطة ترجمة عدد من الكتب المؤسسة منفردًا أو بالاشتراك مع آخرين، ومراجعة ترجمات كتب أخرى مختارة١١. كما حرص الباحث على كتابة دراسات تعريفية بمنهجيات ومقاربات بلاغية معاصرة، يُمكن أن تُسهم في فتح آفاق واعدة في التحليل البلاغي١٢.

ثالثًا: إعادة النظر في وظيفة علم البلاغة

اقترنت نشأة علم البلاغة بتلبية حاجات اجتماعية محددة، في لحظات تاريخية خاصة. فقد نشأت البلاغة اليونانية – وفقًا لإحدى المرويات التاريخية الشائعة١٣ - بفضل التنازع على ملكية الأراضي بين الأثينيين، إثر طرد المحتلين منها. فقد اشترطت المحاكم التي تشكلت للفصل بين المتنازعين على ملكية الأراضي أن يقوم كل من يدَّعي ملكية أرضٍ ما بعرض قضيته – بنفسه – على المحكمة، فإن أقنعها بأحقيته بالأرض منحتها له، وإن فشل في إقناعها حرمته منها. ونتيجة لذلك بزغت حاجة الأثينيين إلى معلمين للخطابة، يدعمونهم بالحجج، ويدربونهم على أساليب الأداء المقنع المؤثر، وازدهرت بفضل ذلك الدراسات البلاغية والممارسات البلاغية معًا.

ولم تكن نشأة البلاغة العربية القديمة ببعيدة عن هذا المبدأ النفعي لنشأة البلاغة؛ فكُتُب معاني القرآن – التي تُعد بحقٍّ التربة الحاضنة لبذرة البلاغة العربية – نشأت استجابة لتحديات اجتماعية وثقافية وسياسية ودينية، فرضت على علماء العربية الدفاع عن لغة النص القرآني (وتراثها الشعري والخُطَبي أيضًا١٤) ضد الدعاوى الشعوبية. وأدَّى هذا إلى تحفيز البحث في الوظائف التداولية والجمالية للظواهر البلاغية، وإلى تشكيل قوائم أولية بالظواهر البلاغية، وتقديم تفسيرات أولية لفاعلية الكلام (أي قدرته على تحقيق الإقناع والتأثير).

ثمة اختلاف بالطبع بين ظروف نشأة البلاغتين اليونانية والعربية؛ فالأولى تشكَّلت بوصفها ممارسة عملية، هدفها

المساعدة في إنتاج خطاب حياتي يومي مقنع ومؤثر، وإنجاز أغراض نفعية ملموسة. في حين نشأت البلاغة العربية بوصفها تعليلات نظرية، غرضها تقديم تنظيرات أولية لبنى وأنماط وظواهر لغوية، في نصوص محددة، تنتمي إلى دائرة النصوص العُليا (هي القرآن والشعر). وعلى الرغم من ذلك فإن البلاغتين – مثل معظم البلاغات الأخرى – نشأتا استجابة لمحفزات ودوافع وحاجات اجتماعية ملموسة، وعلى خلاف ذلك فإن أكثر الدراسات الراهنة لا تبلور لنفسها وظيفة محددة تأخذ على عاتقها إنجازها. ربما يرجع ذلك إلى الانفصال الآخذ في التعمق بين الأكاديمية والمجتمع منذ وضِعت الجامعات العربية داخل أسوار رمزية ومادية، لكنه يعود بدرجة أكبر إلى تحول المعرفة البلاغية إلى غاية في ذاتها، فانزوى العلم على ذاته إلى حد كبير، وبدا الباحث – في كثير من تجلياته - كمَنْ لا يُخاطِبُ إلا نفسه وزملاءه. ونتج عن ذلك أن أصبحت دراسة البلاغة وتدريسها في المجتمعات العربية تكاد تكون نشاطًا منغلقًا على ذاته، تربطه صلات شديدة الوهن بالمجتمعات التي يُنتج فيها، ويوشك أن يقتصر تداوله على الفضاءين التعليمي والأكاديمي.

يسعى مشروع تطوير البلاغة الذي أعرض ملامحه هنا إلى المساهمة في تغيير هذا الواقع، والاستجابة لتحدي تدعيم الوشائج بين البلاغة والمجتمع من خلال الإلحاح على ضرورة الاهتمام بالوظائف الحياتية للبلاغة؛ مثل تعزيز قدرة الأفراد على إنتاج خطابات إقناعية مؤثِّرة تخلو من التلاعب والتمييز والهيمنة، وإنجاز استجابات بلاغية فعَّالة، وتشكيل وعي نقدي بآليات الخداع البلاغي، وإنتاج ممارسات بلاغية حُرَّة، وتدعيم الكفاءة التأويلية والتفسيرية للمواطن العادي. ويتطلب ذلك السعي الدءوب لتقريب نتائج علم البلاغة إلى القارئ العام، من خلال تبسيط لغة العلم، وتوضيح أفكاره، وإتاحة هذه المعارف عبر منافذ جماهيرية مثل الصحف اليومية والمجلات غير الأكاديمية، والدوريات غير المتخصصة، والوسائط المسموعة والمرئية؛ وبخاصة وسائط الاتصال الافتراضي.

رابعًا: إعادة النظر في جمهور علم البلاغة: لمن يكتب دارسو البلاغة العرب؟

لا يُعد طرح هذا السؤال المحوري من قبيل مساءلة البدهيات. فالمؤكد (أو المتوقع) أنَّ لكل كاتب مخاطَب فعلي أو افتراضي يهدف الى مخاطبته نصيًّا أو فعليًّا أو كليهما معًا. قد ينصُّ الكاتب على جمهوره بشكل محدد، فيذكر بوضوح أنه يستهدف قارئًا بعينه، وقد لا يشير إليه مطلقًا، لكنه يظل – بلا شك- حاضرًا في وعيه على الدوام. بعض دارسي البلاغة يكتبون لأقرانهم من المتخصصين أو لمنافسيهم من المتخصصين، أو للمشرفين على أطروحاتهم من المتخصصين، أو لمناقشيها من المتخصصين أيضًا، وربما يكتب البعض حتى لأجيال جديدة من الباحثين (المتخصصين كذلك)، لكن قليلين منهم للغاية هم من يكتبون لقارئ غير متخصص. وباستثناء كتابات جد قليلة فإن جمهور الكتابات البلاغية العربية على مدار القرن العشرين كان جمهورًا أكاديميًا متخصِّصًا بامتياز. فهل هذا أمر سيء؟

الإجابة المباشرة على هذا السؤال هي: إلى حد ما. فالبلاغة في نهاية المطاف هي حقل معرفي، والباحثون هم المعنيون – بشكل رئيس- بتداول الإسهامات المعرفية فيه. لكن هذا ليس كل شيء. فالبلاغة أيضًا حقل خبرة إنسانية، وممارسة تواصلية يومية، يحتاج جُلُّ البشر – وعوا بذلك أم لم يعوا – إلى الإفادة من الإسهامات المعرفية فيه. ومن ثمَّ فإن استبعاد القارئ العربي العام من دائرة جمهور كتابات البلاغة يعني التضحية بشريحة مهمة من المستفيدين من هذا العلم، وهو أمر غير حميد.

لكي نفهم خطورة استبعاد القارئ العام من دائرة جمهور كتابات البلاغة، علينا أن نفكر في تأثير ذلك على: (١) اختيار دارس البلاغة لموضوعات بحثه؛ (٢) طريقة تقديم تحليلاته؛ (٣) لغة كتابته العلمية وأسلوبه. الكتابة في عمومها نشاط إنساني تحكمه الغائية. والجمهور المستهدف من الكتابة يؤثر بشدة في المؤلف ربما قبل أن يمُسك بقلمه أو يفتح حاسوبه. ومنذ عملية اختيار موضوع الكتابة يُطل القارئ المستهدَف برأسه، ويحاول توجيه الكاتب إلى حيث يريد.

خامسًا: استكشاف جذور علم البلاغة

عادة ما يُرجع الباحثون نشأة علم البلاغة إلى اليونانيين؛ إذ يُنظر إلى السوفسطائيين الأثينيين على أنهم أول من وضع قواعده وتنظيراته وحوله إلى ممارسة تعليمية احترافية! وفي إطار هذا التصور المهيمن تحتل المؤلفات اليونانية والرومانية البارزة حول البلاغة مثل «محاورة جورجياس» لأفلاطون وكتاب «في الخطابة» لأرسطو، وكتاب «الخطيب» لشيشرون، مكانة محورية في تاريخ البلاغة. غير أن واقع الاكتشافات الحديثة للمنجز المعرفي للحضارات القديمة في مصر والعراق وفارس والهند والصين وغيرها، في سبيله إلى زعزعة هذا التصور المتحيز عن تاريخ البلاغة. إذ تتعزز شيئًا فشيئًا فكرة أن البلاغة - سواء بوصفها علمًا وتدريبًا أو بوصفها إنتاجًا للكلام البليغ - لم تكن اختراعًا يونانيًا، بل هي ثمرة من ثمرات كل تطور حضاري، حيث تتلازم البلاغة مع العمران.

ومع ذلك، فإن مراجعة التأريخات المستقرة تتم على استحياء شديد، وتواجهها مشكلات عملية وأيديولوجية. أبرز المشكلات العملية هي اندثار الكثير من آثار الحضارات القديمة؛ خاصة الأعمال الفكرية التي لم تندمج في إطار المعتقدات الدينية القارة أو العادات المتوارثة. وتزداد صعوبات العثور على النتاجات الفكرية النظرية مثل التنظيرات البلاغية، إذا وضعنا في الحسبان حقيقة أن معظم النشاط المتعلق بتداول المعرفة في هذه الحضارات القديمة كان يتم في سياق نخبوي مغلق، تمارَس فيه أشكال متعددة من احتكار المعرفة. فقد كان الكهنة في مصر القديمة - على سبيل المثال - ينقلون المعرفة النظرية والتجريبية من المعلم إلى التلميذ عن طريق المشافهة والتقليد. وكان من نتائج ذلك أن دُفن الكثير من «أسرارهم» معهم، واندثرت باندثارهم.

بالإضافة إلى الأسباب العملية المعوِّقة لكتابة تاريخ جديد للبلاغة، هناك أسباب أيديولوجية؛ لعل أهمها النزعة المركزية الأوروبية. فهناك نزوع راسخ في التقاليد العربية الأكاديمية للتعامل مع المعرفة على أنها نتاج حصري للغرب؛ سواء في حقبته القديمة (اليونانية والرومانية)، أو في حقبته الحديثة (الأوروبية والأمريكية). وتتجلى هذه النزعة أشد ما تكون في كتب تاريخ العلم، حيث تتجاهل الكتابات المؤرخة للعلوم الإسهامات غير الغربية، أو تقلل من تأثيرها، أو تقدمها بوصفها خلافية وغير مؤكدة. ويُعد علم البلاغة حالة نموذجية لذلك، إذ اعتادت الكتب المؤرخة للبلاغة على مدار قرون طويلة التعامل مع هذا العلم بوصفه منجزًا غربيًا حصريًا. ولم تتم مراجعة هذه الكتابات إلا منذ عقود قليلة. ضرورة إعادة استكشاف تاريخ البلاغة العربية بهدف تسليط الضوء على الإسهام البلاغي لحضارات لم تنل حظها من التركيز مثل الحضارة المصرية القديمة، ولبلاغيين يحتاجون مزيدًا من الاهتمام مثل كتابات أفلاطون حول البلاغة؛ مشيرًا إلى كتبه ومقالاته التي تحاول إعادة كتابة تاريخ هذا العلم المهم. وقد حاولتُ تقديم بعض المساهمات المحدودة في هذا المجال١٥.

الهوامش

١ انظر، أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، سلسلة الكتب المترجمة ١٤، ١٩٨٠.

٢ من علامات هذه الأهمية تخصيص أعداد كاملة من دوريات مهمة لمناقشة هذه الظاهرة، مثل العدد الخاص الذي تعده دورية «الدراسات النقدية للخطاب Critical Discourse Studies»، حول موضوع «التحليل النقدي للخطاب متعدد العلامات»، وقد صدر نهاية عام ٢٠١٣.

٣ انظر على سبيل المثال:

Kress, G., and T. van Leeuwen. (1996). Reading Images: The Grammar of Visual Design. London: Routledge.

Kress, G. and T. van Leeuwen. (2001). Multimodal Discourse: The Modes and Media of Contemporary Communication. Arnold: London.

4 انظر، Interdiscursivity between political and religious discourses in a speech by Sadat: Combining CDA and addressee rhetoric. Journal of Language and Politics 10:1 (2011), 50–67. Amsterdam: John Benjamin's.

٥ انظر، فن القول، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٤٧. ومناهج تجديد في النحو

والبلاغة والتفسير والأدب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، والمقالات التي يتضمنها الكتاب عن البلاغة نُشرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين.

٦ انظر، سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، المطبعة العصرية، القاهرة ١٩٤٥، ١٠٥.

٧ انظر، عبد اللطيف، عماد. (٢٠٠٥): «بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته» ضمن: 8th International Proceedings of the Symposium on Comparative Literature "Power and the Role of the Intellectual", ٧-٣٦، ص٢٣.

٨ انظر كتاب: استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي. (٢٠١٢). الهيئة العامة للكتاب، القاهرة؛ و: الدراسات العربية حول الخطابة السياسية: عرض نقدي. مجلة: أوراق في علم اللغة، حولية محكَّمة، تصدرها جماعة اللغويين بالقاهرة، عدد ٧ (٢٠٠٨)، ص ٢٣-٥٣؛ و: بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل إلى التحليل البلاغي للخطاب السياسي. مجلة ألف: مجلة البلاغة المقارنة، مجلة علمية محكَّمة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة، عدد ٣٠، (٢٠١٠)، ص ١٤٦-١٧٥؛ و: حروب بلاغية: مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة. (٢٠١٢). مجلة ألف في البلاغة المقارنة. مجلة علمية محكمة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عدد ٣٢، ص ٢٨٣-٣١١.

٩ انظر كتاب: «بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة». (٢٠١٢). دار التنوير، بيروت- القاهرة – تونس؛ و: تحليل الخطاب: بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية. مجلة فصول، فصلية علمية محكمة، الهيئة العامة للكتاب، مصر، عدد ٨٣-٨٤، ٢٠١٣، ص ٥٠٩ - ٥٣٠.

١٠ انظر: لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. (٢٠٠٩). دار العين، القاهرة. و البلاغة والتواصل عبر الثقافات. (٢٠١٢). سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

١١ تتضمن هذه القائمة: «الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر». (٢٠١١). تاليف ميشال دوريتشر دون. ترجمة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، مصر؛ «الاستعارة في الخطاب». تأليف إيلينا سامينو. (٢٠١٣). ترجمة عماد عبد اللطيف وخالد توفيق. نشر المركز القومي للترجمة، مصر؛ «موسوعة أكسفورد للبلاغة». توماس سلوان. ترجمة أجزاء إلى العربية ومراجعة بقية الأجزاء. يتوقع صدور الموسوعة في أربع مجلدات كبيرة أواخر ٢٠١٥، عن المركز القومي للترجمة بمصر؛ «مناهج التحليل النقدي للخطاب». (٢٠١٤). تحرير روث فوداك وجريج ماير. ترجمة، عزة شبل، وحسام أحمد فرج، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، مصر؛ «اللغة والسلطة». (٢٠١٤). تأليف توين فان دايك. ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف. المركز القومي للترجمة، مصر؛ مقال «تعاون أم إرشاد: البلاغة والإيديولوجيا في أشكال حديثة من الهداية الإسلامية في مصر». يعقوب هيجليت، مجلة أوراق في علم اللغة، مجلة علمية محكَّمة، العدد السابع، ٢٠٠٨، ص٥٣-٨٦.

١٢ انظر على سبيل المثال: «البلاغة النقدية: مشروع بلاغي في نقد الخطاب»، ضمن البلاغة والدراسات البلاغية، الجزء الأول «مفهومات بلاغية»، نشر دار العلم والإيمان، القاهرة، (٢٠١٠). ص ٢٩٥-٣٠٨؛ و: من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي. مجلة ثقافات، مجلة علمية محكَّمة، كلية الآداب، جامعة البحرين، البحرين، عدد ٢٢ (٢٠٠٩)، ص ٦٨-٨١.

١٣ بالطبع توجد روايات أخرى مثل تلك التي يقدمها كتاب
Sansone, D. (2012). Greek Drama and the Invention of Rhetoric. Malden, MA; Oxford; Chichester: Wiley-Blackwell.

١٤ يرجع هذا الارتباط الوثيق بين القرآن الكريم والشعر (الجاهلي بخاصة) إلى اعتماد أصحاب معاني القرآن على آلية الحجاج بالمشابهة، في دفاعهم عن لغة النص القرآني. لتحليل تفصيلي لهذه القضية يمكن الرجوع إلى: عبد اللطيف، عماد. (٢٠١٤). تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف. دار كنوز المعرفة، الأردن.

١٥ انظر: موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلة علمية محكَّمة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلد ٥، عدد ٣ (٢٠٠٨)، ص ٢٢٧-٢٤٤؛ و: البلاغة المصرية القديمة: تقديم وترجمة، (قيد النشر) مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.